



أشرب القهوة مع الرفيق ستالين، أمام نافذة تطل على شارع خال: صورة الرفيق بشاربه الكث ونظرته الحازمة الجدية ترسم على وجهي ابتسامة مشفقة على البروباغندا وأهدافها ونوابها. شاحنتان لجمع القمامة: إحدهما مخصصة للقمامة التي يُعاد تدويرها؛ ينزل الرجال منهما بهمة ونشاط؛ يتعثر أحدهم، ليتلقفه صديقه سريعاً. بصفتي تقدّماً نسوياً يسارياً ثورياً، أواظب على فصل أنواع القمامة المختلفة بدقة موسوسة مهووسة، كأني سأنقذ الكوكب وحدي. أنا، وقمامتي، وظلمة الفجر، ننتظر ما قد لا يأتي: شمس الشمال البارد. صفحة الورد على الحاسوب ممتلئة بملاحظات لمقال طويل لا يبدو أنني سأنجزه قريباً، عن مفهوم الحقيقة والأفعال الكلامية. رسائل كثيرة على الإيميل لا أفتحها: تتراكم فوق بعضها، في مكان لا مادي، كالروح الديكارتية، دالة على كسلي، وقلة تفاعلي الاجتماعي، وإحباطي، وخوفي المتعاطف من التكنولوجيا التي تفتح حياتي الشخصية الفقيرة المنعزلة في كوبنهاغن المعتمدة.

وأنا بالطبع، لم أخطط لتناول القهوة مع الرفيق الفائز جوزيف ستالين كل صباح؛ على العكس، أحاول قدر الإمكان الابتعاد عن القادة والعسكر والسياسيين والمتنفذين والرفاق المنقذين الملاعين اللذين يشبهونني جدّاً؛ ولكن الأقدار جمعتنا: لم أستطع مقاومة الفناجين المندھشة، القابعة بحزن، مع وجه ستالين الفذ، يعلوه الغبار، في تبليسي عاصمة جورجيا، التي ينتمي إليها الرفيق. كان وجه الرفيق ضائعاً ضمن المنتجات السياحية التي تتوزع بين قبعات شتوية صوفية وأوان فخارية وحلوى محلية وأيقونات رخيصة الثمن وإكسسوارات نسائية متنوّعة، بالإضافة إلى عرائيس مسلوقة وبيرة بادرة وبيبيسي وبيبيسي زيرو: يعلوه الغبار، غبار تاريخ يبيعه الفقراء لسائح يملؤون المكان بجلبة تشبه جلبة الجنود المنسحبين من معارك خاسرة: ملولين، مكسورين، مستعجلين، يريدون العودة إلى مدنهم وقراهم، لينسوا كل ما خبروه في تلك الأماكن المزدحمة.

احترت بين ثلاثة فناجين: الأول يصور وجه الرفيق مع خلفية للحرب العالمية الثانية، والثاني صورته في المكتبة، واقفاً يقرأ، أو، بالأحرى، يخترق ذهنه الكتاب وحدوده ليكتسح العالم بعمقه وفرادته، والثالث، صورة تقليدية على المكتب، ينظر ستالين مباشرة إلينا منها: في وجهه مسحة محبة وإنسانية. يخيفني الفنجان الثالث؛ ويشير مللي الثاني: بما أنني كاتب، وأعيش حياتي في المكتبة، ولها، لا أشعر بأي تعاطف مع أية صورة في أية مكتبة: كل ما أريده، وأهواه، وأسعى إليه، يقع خارج المكتبة. في النهاية، أشتري الفنجان الأول، فيما البائعة تأكل بطيخاً وتبتسم بسعادة لتخلصها من فنجان



لا إقبال عليه.

لم أر الرفيق جوزيف في زيارتي القصيرة إلى جورجيا، قبل أن ألمح هنا في الكشك الصغير على باب الكنيسة التائهة في الجبل: يختلط ماضي إحدى أقدم البلدان المسيحية في العالم، مع سياح من كل أقطار العالم، في كشك بائعة في منتصف العمر، على باب كنيسة لا تسمح للنساء بالدخول إلا إن احتشمن. أدخل الكنيسة، أقف أمام أيقونة ضخمة، حزينة، قاتمة الألوان؛ لا أصلي، ولكنني أرقبها بخشوع.

أدعو الله شيئاً ما في سرّي، وأغادر.

تدخل أمامي سائحتان تضحكان بصخب، بملابس صيفية لا تستر الكثير.

زرت جورجيا لألتقي أهلي، في بلد ما زال يسمح لحاملي جوازات السفر السوريين، وللجئنين، بدخوله، دون فيزا؛ مما يعني فرصة لعشرات آلاف السوريين للقاء في أرض محايدة، أو تبدو محايدة: ملجأ أخير لبرجوازية سورية تتراجع قدرتها على الحركة باستمرار، فيما بقية السوريين مكبلون تماماً بالأصفاد.

في المطار، عشرات السوريين ينتظرون تسجيلهم بشكل غير رسمي مع المخابرات: سوريون، وأيضاً هنود وباكستانيون وعراقيون، وجنسيات مختلفة من العالم الثالث. يقبض الشرطي على جواز سفري، ويقبّله بسرعة، ثم يرميه فوق كومة جوازاتنا.

يقفز قلبي رعباً، وأنا أراقب الوثيقة تغرق بين الوثائق الأخرى، تافهة صغيرة وضعية، وفيها مستقبلي وسبيلي الوحيد للعودة إلى الشمال البارد مع زوجتي وابني. أقف محبطاً أراقب السوريين: يتشابهون في كل المطارات: مكسورين، ذليلين، حاقدين، تائهيين، خائفين من كل شيء؛ من الحكومات ومن شركات الطيران ومن السوريين الآخرين ومن موظفي الهجرة ومن الجو العام والخاص ومن الانتخابات التركية والأمريكية والفرنسية والنمساوية، ومن الاحتباس الحراري، ومن المتأسلمين والمتعلمين والمتدينين والملحدين؛ خائفين خائبين كأنه يوم الحشر: كلمة من الموظف



سنتهي كل أمل في لقاء أهل قد لا نلتقيهم مرة أخرى: ابتسامات ميتة، نصف منافقة، تتحوّل إلى شحوب فرح صادق تماماً مع ختم الدخول: أطفال يبكون، ورجال يبكون، ونساء يبكين: لقاءات قصيرة مقنّعة غير مقنّعة: أطفال يتعرّفون على أجدادهم وجداتهم وعماتهم وأخوالهم، وأمّهات لا يعرفن هل سيلتقين أبناءهن مرة أخرى، وآباء وأبناء لا يكادون يتفقون على شيء، إلا الرغبة المشتركة بستره لا تتوفر لنا، والجميع يجد الوقت الكافي في الأيام القليلة التي سيقضونها هنا لانتقاد بعضهم البعض بقسوة معتادة، لا مهرب منها.

تليسي مدينة محبة بسيطة، إن فتحت لها قلبك؛ معقّدة، إن أعملت فكرك في ماضيها وحاضرها ومستقبلها. قلب العاصمة خليط من الشرق والغرب: أبنية تاريخية ساحرة، تشبه أبنية العواصم الأوربية بحجمها وفخامتها وتسلّطها؛ تجاورها المدينة القديمة، التي تشبه مدننا الضئيلة الضالة الحزينة؛ يحيط بها ضواح حزينة تتفجر أسى لا يكبحه حتى نظرة ستالين المرعبة.

باعة جوالون على أرصفة ممتلئة عن بكرة أبيها، الشارع الرئيس يمتلئ بالماركات العالمية: شعار ماكدونالدز يرتفع عالياً، على أحد أقدم وأجمل المباني، ليطل على ساحة فيها نافورة شرقية. طبيعة ساحرة عذراء تحيط بالعاصمة. صحف وإذاعات وتلفزيونات تلعن روسيا الاتحادية ليل نهار: احتل الأعداء أجزاء من البلد في حرب سريعة؛ إعلانات عن زيارات سياحية لمسقط رأس ستالين، مع رحلات في جبال ساحرة باهرة؛ ألحان شرقية من بزق حزين، وأيقونات صغيرة لقديسين لم يحموا البلد الصغير من مصائب لم تفارقه يوماً.

أجلس في مقهى فخم، أتبادل الإشارات مع النادلة، التي ترحّب بنا بصدق لا يوجد إلا في أماكن ساذجة كهذه، تلك التي لم تستعمرها الصناعة السياحية بعد. ليلاً، أجلس على باب البرلمان مع ابنة أخي، التي تحدثني بالإنكليزية عن طموحاتها ومخاوفها ومشاكلها. بائعة الأيقونات النادرة تحمل ابني الصغير، لتقبّله وتضمه: تهدينا زيتاً مقدساً، تقول إنه سيحميه من نوائب الدهر. أفكر في ستالين الصغير القابع في حقيبتني الصغيرة المهترئة: لماذا أجلبه إلى كوبنهاغن؟ ربما بسبب توتري الدائم من خلفيتي البرجوازية الممتزجة بسلاسة مع إيماني النظري اليساري الصارم العميق، ولكن المتزعزع عملياً؛ فوضوي أتى من الفلسفة إلى السياسة: لم أنتم يوماً لحزب أو حركة أو جماعة، ولا أفهم كثيراً في التاريخ السياسي: يشدني كروبتكين إلى إيمان بأخوة فطرية بين البشر، وبتنظيم ذاتي لا تفرضه السلطات من أعلى.



ربما جلبت مع الرفيق القائد إلى كوبنهاغن ليؤنسني في وحدتي، وأحك وجهه، وأمسد شاربه، وأداعب أنفه المرسوم بدقة، وليذكرني بفشل ذريع، فشل سابق على فشلنا العام الكبير العميق الحالي: وحده ستالين أنهى حلم اليساريين في عالم عادل: حلم اليساريين جميعاً، على تنوعهم، وربما، إلى الأبد. ستالين السياحي في بلد فقير أنهكته حروب المافيا، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، لينتعش الاقتصاد بعدها على يد الليبراليين، الذين ما لبثوا أن لوّثوا بلدهم بفساد فاحش: لا يثير ستالين أية مشاعر هنا، فقد مات الضحايا، ومات أولادهم، ومات ستالين، ومات خلفاؤه، وسقط الاتحاد السوفيتي، و"انقضت تلك السنون وأهلها، كأنها وكأنهم أحلام"، كما يقول أبو تمام، ولم يبق إلا غبار يملأ مفاه شبه فارغة، فقيرة، مليئة بالحنان والحميمية، في العاصمة الحزينة الجميلة: يأكلون الفول المدمس، والمصقعة، والكباب، ويكرهون روسيا بعمق: أبناء عمنا، المسيحيون المتدينون، شاربو القهوة التركية بإدمان.

أحمل طفلي، وكتاب الصف الثالث في اللغة الدنماركية، مبتعداً عن النافذة. يرمقني الرفيق بنظرة ثابتة، عالمة بما يدور في داخلي. أزيح الفئجان كي لا أرى عينيه. هل أخطأت بجلبه معي إلى منفاي في الشمال البارد؟ فحص اللغة الدنماركية بعد ساعات. أذندن مع عبد الوهاب "كل ده كان ليه"، وطفلي يتابعني بحذر. أفكر في السوري الكسول، ذلك الذي يتحجج بالحرب ليل نهار: كلما فشل، أو قصّر، يلوم الحرب التي تبعد آلاف الكيلومترات عنه. بعض الدنماركيين يرتبكون حين نتكلم الدنماركية: هل سوري بالدنماركي هي "سورا" أم "سوريسك"؟

ينقسم الدنماركيون أنفسهم، ونسكت نحن محرجين. "احترت أشوفه فين، وإن شفته أقله ايه؟" أغني بنشاز مزعج، لتختفي ابتسامة الطفل وهو يزداد حذراً: ما الذي أصاب هذا الرجل المشعر في السادسة صباحاً؟ أفكر بصديق استشهد تحت التعذيب، ثم أطرده الفكرة سريعاً من رأسي. انتحار امرأة في ريف إدلب، خبر عادي على الفيس بوك. صورة بالأبيض والأسود ليلي هوليداي على الجدار. سورا، وليس سوريسك. ماشي.

تقول زوجتي إن علي أن أكوي قمصاني المتراكمة في غرفة الجلوس. ألبسهم دون كوي، مدعياً أنني كاتب مثقف لا أهتم بالشكليات. تعلق بالدنماركية، بل أنت كسول. تعتقد زوجتي أنني لا أفهم لغتها، ولكنني أفهم كل شيء؛ أي والله، أنا أفهم كل ما يُقال، وكل ما لا يُقال؛ أفهم، وأراقب، وأصمت، منتظراً إشارة من الرفيق ستالين.



أقترب من رف الكتب، حيث تسقط أشعة الشمس الأولى لتتير غبارنا: غبار مرئي على الرف الذي يضم كتباً متنوّعةً لم أقرأها بعد: مختارات شعرية لإدجار آلان بو ودراسات في الفلسفة اللغوية لجون سيرل ومراسلات ديكارت وأعمال نقدية لفوزي كريم والترجمة العربية لقصص هانس كريستيان أندرسن. كان دوري الأسبوع الماضي في تنظيف غرفة الجلوس: لم أقم بواجباتي المنزلية. غبار مرئي يعلو أوراق النبتة اليتيمة في عشنا الصغير، على ما يقول الرومانسيون الحالمون، وعلو المصباح القديم والساعة الإلكترونية الرخيصة: غبار لا يزول عن الأشياء والكلمات، ولا عن الزمن، ولا عن الفنجان اللامع.

تشرق الشمس أخيراً، وأنا أشرب قهوتي الصباحية بفنجان رخيص من جورجيا، عليه صورة القائد الخالد جوزيف ستالين: هكذا، أجلب الضحايا، والسياح، والباعة الفقراء، والمنافقين الذين بڑروا جرائمه، وأولئك الذين ارتكبوها، وستالين نفسه، إلى في الشمال البارد، لنشرب قهوتنا الصباحية معاً، ونتابع أخبار سوريا، حيث يتراكم الغبار، فوقنا، وتحتنا، وحولنا، وداخلنا، الغبار الذي يتسرّب من مسامات الجلد إلى أرواحنا التي أنهكها الانتظار، والعجز، والأمل الغامض المحسوس الصلب، الحزين، العميق، الذي يتجدّد كل صباح، كابتسامة البائعة التي نفضت الغبار عن وجه ستالين، سعيدةً بتخلّصها من فنجان لا إقبال عليه!

الكاتب: عدي الزعبي